المساواة في الإسلام

تطبيقها في الماضى والحاضر وآثارها في الفرد والجماعة

دكتور

محمد شبل مصطفي عطية

مدرس التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على اشرف النبيين والمرسلين سيدنا محمد النبى الأمين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان إلى يوم الدين.... وبعد.

فهذا بحث موجز حول قضية المساواة بين الخلائق فى كافة الحقوق والواجبات أقدمه للقراء لعله أن يعيد الأذهان إلى رحاب الفكر الإنسانى الصحيح من أجل استيقاظ البشرية، ليعود للمجتمع الإسلامى أمنه واستقراره ولينعم الإنسان الذى كرمه خالقه بالحرية والإخاء، ولتصبح العقيدة هى الأساس الذى يقوم عليه بناء المجتمعات الإنسانية على أسس من المحبة والإخاء لتتحقق سعادة البشر على ظهر الأرض ما داموا مطبقين شرع الله وملتزمين بالأخلاق الفاضلة، ومحافظين على تطبيق منهج العدل الذى يحقق المساواة فى كل أمورهم، قال تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما يدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب. وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب. فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا

وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾(١) والظاهر أن الآية الأخيرة عامة فى كل شىء والمعنى (وأمرت لأعدل بينكم فى كل شىء) .

معنى المساواة

يقال: سوى الشىء يسويه تسوية عدله وجعله لاعوج فيه، وسواه جعله على كمال واستعداد لما يراد منه، وساوى الشىء عادله وماثله وسوى تدل على معنى التوسط والتعادل، وسواء كلمة عدل(٢)، فالمساواة تعنى العدالة الاجتماعية بين البشرية والإسلام منهج العدل والإعتدال الذى دعا إلى حفظ الحقوق، والمساواة بين الناس أمام القانون، وإلغاء التمايز والاستغلال والظلم بين الناس، والعدل هو إعطاء كل ذى حق حقه، أو إيصال الحقوق لأصحابها كاملة غير منقوصه، والمراد تقويم البشر تقويما سليما بميزان الاعتدال دون تفرقة بينهم بسبب الجنس أو العنصر أو اللون أو النسب أو القبيلة، أو غير ذلك مما يدعو إلى التفاخر والتعاظم والاستعلاء، وتتضح هذه المفاهيم فى أحكام الإسلام وتعاليمه، وقد ألغى الإسلام بصراحة كل هذه الإمتيازات ووضع أساس التكريم الذى يقوم على التقوى «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (٣)

نظرة إلى قضية المساواة قبل الإسلام

لو نظرنا إلى إسس المعاملة قبل الإسلام لوجدنا ولاة الأمور كانوا يحكمون رعاياهم بالهوى، ويفرقون بينهم فى المعاملة

١- الشورى الآيات (١٣-١٥)

٢- البرهان فى غريب القرآن لابن صالح ص٢٠٥-٢٠٦ نشر مكتبة وهبة

٣- سورة الحجرات آيه ١٣

والتكاليف، بل كانوا يكلفون البعض فوق طاقتهم ويحرمونهم حقوقهم، وكان العالم تتنازعه دولتان كبيرتان هما دولة الفرس ودولة الروم اللتان سيطرتا على الشرق والغرب، وأستأثر الحكام بكافة موارد البلاد وعاشوا عيشة الترف دون النظر فى حقوق الرعية، وكانت الشعوب تعيش تحت سيطرة الفرس والروم معيشة بؤس وشقاء، كان القوى يأكل حق الضعيف، ويسيطر الغنى على الفقير، وكان الناس يعيشون عيشة الغاب، دون الإلتزام بقوانين تحكمهم، أوتشريع ينظم حياتهم، بل إن العصبية القبلية والحمية الجاهلية كانتا تدفعهم إلى الظلم وتجاوز الحد والتعدى، والأخذ بالثأر لأتفه الأسباب، والناس فى عصر ما قبل الإسلام كانوا قسمين: أولهما: طبقة السادة الذين استأثروا بالحكم والسيادة والسيطرة، ومن يلوذ بهم من المقربين، وثانيهما: طبقة العبيد من الرعايا والرقيق، وكان الإنسان مسلوب الحرية والكرامة، فكان يباع ويشترى فى الأسواق، وخاصة أسرى الحرب أو ما يقع فى الأسر نتيجة إعتداء قبيلة على أخرى، ولم يكن هناك عدالة بين البشر لا فى العمل ولا فى الحرية، ولا فى التملك، بل استأثر بذلك طبقة السادة أو الحكام، وكانوا يميزون بين الناس باللون أو العنصر أو الجاه أو الشرف والنسب، ولم ينظر الولاة إلى البشر بعين التراحم والتسوية بينهم وإعطائهم حقوقهم، بل كان هناك تفاوت فى المعاملات بالرغم من أن الناس جميعا مخلوقون من نفس واحدة، فإن أصلهم واحد، ومرجعهم إلى أب واحد، فهم أخوة فى النسب كلهم لآدم وآدم من تراب.

قال تعالى: ﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساءً، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾(١)

قال الإمام النسفى قال علقمة: «مافى القرآن يأيها الناس فهو خطاب لأهل مكة، وما فيه يأيها الذين آمنوا فهو خطاب لأهل المدينة، وهذا خطاب لمشركى مكة (٢) لأنه يغلب عليهم الكفر فخوطبوا «بيأيها الناس»

والذى آراه أن لفظ الناس يحمل على العموم فيشمل جميع بنى آدم، ويدخل فيهم أهل مكة الذين خاطبهم القرآن لتصحيح عقائدهم دخولا أوليا، فالمراد بالناس الموجودون عند الخطاب، ويدخل فيهم من سيوجد بعد، لأن التكليف متوجه للجميع، أو أنه غلب الموجودين على مالم يوجد.

والآية تلفت نظر الجميع إلى تقوى الله فى جميع الأقوال والأفعال، والخضوع لسلطانة فهو الذى خلقهم من نفس واحدة أولا، وخلق منها زوجها ليسكن إليها، فالعطف فى «خلق» على مقدر، وقيل عطف على «خلقكم» أى وخلق من تلك النفس التى هى آدم عليه السلام زوجها حواء كما قال تعالى: ﴿هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾(٣)

١- سورة النساء الآية الأولى

٢- تفسير النسفى ح١ص ٢٨ط عيسى الحلبى

٣- الأعراف آية ١٨٩

ومادام الجميع مخلوقين من أب وأم فهم متساوون لدى خالقهم، وتفضيل البعض على البعض إنما يكون بالتقوى والعمل الصالح، وكذلك تفضيل البعض على البعض فى الدرجة والمنزلة الدنيوية لتتحقق الخلافة وتعمر الأرض بالعمل والمراقبة، وتفضيل البعض على البعض فى الرزق ليكون الناس فى ترابط وتواصل من أجل التعاون وسد حاجة بعضهم بعضا، وما هذه الاختلافات إلا دليل على القدرة الإلهية التى يجب الإرتباط بها، قال تعالى: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾ (١) «وقال من نفس واحدة» على تأنيث لفظ النفس (وبث منهما) أى من آدم وحواء رجالا كثيرا ونساءً، ثم أمر بالتقوى ثانيا وحث على صلة الأرحام مقسما بها، والله سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته الدالة على وحدانيته وقدرته، وكرر الإتقاء تأكيدا وتنبيها لنفوس المأمورين،

قال القرطبى (وفى الآية تنبيه على الصانع. ثم قال: قال محمود الوراق:

فأما الذى فوقى فأعرِف قدره .. وأتبع فيه الحق والحق لازم (٢)

المساواة فى الإسلام

كانت دعوة الإسلام سباقة إلى تذكير الناس جميعا بأصلهم الأول ليشعروا بأخوتهم وصلتهم الإنسانية والبشرية، وكان العالم بحاجة إلى من ينقذه من ظلمات الجهل والضلال، وتجاوز

١- الروم آية ٢٢ وانظر دروس من القرآن ل محسن قرائتى ط الدار الإسلامية بيروت

٢- تفسير القرطبى ح٩ص٦٠٢٨ نشر دار الغد العربى

الحد والاعتداء والسيطرة على حقوق الآخرين، وتقليل أسباب العداء بين البشر، وإنارة طريقهم، وتوضيح المثل العليا فى المعاملات، وتحقق المساواة بين الجميع فى كافة التكاليف والحقوق والواجبات، فكانت بعثة خير الأنام صلى الله عليه وسلم بشريعة الإسلام الغراء، ولقد امتازت الدعوة الإسلامية بأنها دعوة الحب والإخاء والمساواة، ولقد قامت على البساطة والإقناع واحترام كرامة الإنسان، ولا غرابة أن ينتشر الإسلام، وتبقى أسسه وتعاليمة غاية ينشدها الناس فى كل عصر، لما فيها من تحقق لكرامة الإنسان فى كل مكان، قال تعالى: ﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ (١) أى كرمناهم جميعا.

وهذه الكرامة يدخل تحتها خلقهم على هذه الهيئة الحسنة، وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس على وجه لا يوجد لسائر الحيوان مثله. وحكى ابن جرير عن جماعة أن هذا التكريم هو أنهم يأكلون بأيديهم، وقيل ميزهم بالعقل والنطق والتمييز، وأعظم خصال التكريم العقل الذى ميزوا به بين الحسن والقبيح، وقيل تكريمهم هو أن جعل محمدا صلى الله عليه وسلم منهم إلى غير ذلك من أقوال، ولا مانع من حمل التكريم فى الآية على هذه الأشياء جميعها (٢)

١- الإسراء آية ٧٠

٢- فتح القدير للشوكانى ح٣ص٢٤٤ بتصرف.

ثم خصص بعض أنواع التكريم بقوله (وحملناهم فى البر والبحر) من أجل السعى والعمل وقضاء الحاجات، «وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» وفى الآية دلالة واضحة على أن الله سبحانه فضل بنى آدم على كثير من مخلوقاته، وكلمة بنى آدم تحمل فى ذاتها كل المعانى السامية للتكريم الإلهى الذى اختص به الإنسان، ليكون خليفة لله فى أرضه تحقيقا لقوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالاتعلمون ﴾(١)

وعد الله بإستخلاف المؤمنين فى الأرض:

لقد وعد الله الصالحين من عباده الذين يعدلون فى معاملاتهم ويقيمون تعاليم الإسلام، ويعملون الأعمال الصالحة بالإستخلاف فى الأرض والتمكين فيها، قال تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم آمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾ (٢)

وهذا وعد من الله سبحانه لمن آمن بالله واستقام على طريق الحق، وعمل الأعمال الصالحة التى ينتفع بها البشر، ويرضى

١- البقرة آية٣٠

٢- النور الآيتان (٥٥-٥٦)

عنها الخالق. بالإستخلاف فى الأرض، وتمكين الدين بإعلائه وإظهار شأنه، وكذلك تبديل خوفهم أمنا ليعيشوا فى أمن وسلام، وهو وعد يعم جميع الأمة، أى ليجعلنهم فيها خلفاء يتصرفون فيها تصرف الملوك فى مملوكاتهم والمراد بالتمكين: هو التثبيت والتقدير بإظهار دينهم على جميع الأديان، ويذهب عنهم أسباب الخوف الذى كانوا فيه من الأعداء، ليتفرغوا للطاعة والعبادة كما أمر الله سبحانه، وينصرفوا للعمل الجاد من أجل المجموع، ويحافظوا على العبادات من الصلاة والزكاة، ويطيعوا الله ورسوله ليرحمهم الله رحمة عامة فى الدنيا و الآخرة.

ولما كان الإسلام هو الدين الخاتم الذى ارتضاه الله للعالمين، قال تعالى: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ (١) فجاءت رسالته عامة إلى كل البشر، قال تعالى: ﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا﴾ (٢)

شمول القرآن لكل أمور الحياة:

كانت معجزة النبى ﷺ القرآن الكريم الذى جاء ليصنع الحضارة الشامخة فوق أرض الإسلام، ويشيد دعائم المدنية على صعيد التوحيد، جاء يعلم الناس أصول الحياة، وقوانين العمران،

١- فى الآية ٣ من سورة المائدة

٢- فى الآية ١٥٨ من سورة الأعراف

فإن غاية القرآن الراشدة وبغيته النبيلة، أن يخلق الإنسان الحضارى صاحب العقل والمنطق والفكر اللماح والفهم اليقظ، فهو الدستور الخالد الذى ربط الإنسان بالكون ربطا عضويا وجعله لبنة من لبناتة وركيزة من ركائزه (١) فقد اتسعت تعاليمه لتشمل كل جوانب الحياة مادية ومعنوية، وأقام حضارة عالمية تعبر عن طبيعة الإنسان، وتلبى جميع احتياجاته ومتطلباته، كما أنه الأساس لمبادىء وقوانين الآداب الإنسانية، والعلوم الإسلامية التى جاءت لتطهير النفوس، وتهذيب الأخلاق، وتوحيد المجتمع، وإحلال الإخاء والعدالة محل تسلط القوى على الضعيف، وفى القرآن تصريح بأنه كفيل بحل جميع المشاكل التى تصادف بنى البشر(٢) قال تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾(٣) أى بيانا لكل شىء، والمعنى (أن فيه بيانا لكثير من الأحكام، والإحالة فيما بقى منها على السنة، ومرجع الكل إلى الكتاب حيث أمرنا فيه سبحانه باتباع رسوله وطاعته، فتبين أنه كان تبيانا لكل شىء، وقال مجاهد تبيانا للحلال والحرام وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين، خاصة لأنهم المنتفعون به، وقيل هدى لهم ورحمة لهم ولغيرهم فى الاسترشاد بتعاليمه إلى الحقائق، والإستفاده من علومه ومعارفه وقوانينه وأحكامه فى المعاملات الدنيوية، والحياة البشرية لا تنتظم إلا بالإنقياد لشرع الله.

١- الجانب الحضارى فى القرآن د/عبد الله سلامه مجلة الوعى الإسلامى العدد ١٦٦ط١٣٩٨هـ

٢- الإيمان فى القرآن للأستاذ محمد رجاء حنفى إصدار المجلس الأعلى للشئون الاسلامية العدد١٨٠

٣- سورة النحل آية ٨٩

قال تعالى: ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون﴾ (١)

والشريعة هى الملة والمذهب والمنهاج، والمراد بالشريعة (ماشرعه الله لعباده من الدين والجمع شرائع، والمعنى: أى جعلناك يا محمد على منهاج واضح من أمرالدين يوصلك إلى الحق «فاتبعها» وأعمل بأحكامها فى أمتك «ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون» توحيد الله وشرائعه، وهم كفار قريش ومن وافقهم(٢)فهم يريدون أن يفتنوك ويضلوك عن بعض ما أنزله الله إليك من الأحكام، فاحذرهم ولا تتبع أهواءهم، وهذا أمر لكل من سار على نهج الرسول الكريم من العلماء والداعين إلى الاقتداء بسنته الشريفة، وبناء الشريعة الإسلامية إنما كان من أجل هداية المؤمنين فى تنظيم حياتهم وإصلاح شئونهم، قال تعالى:﴿ يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمن﴾ (٣) أى قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وذكر وتنبيه على التوحيد، والموعظة التى تدعو إلى كل مرغوب وتزجر عن كل مرهوب، فما فى القرآن من الأوامر والنواهى داع إلى كل مرغوب وزاجر عن كل مرهوب (٤) والوعظ فى الأصل التذكير بالعواقب سواء أكان بالترغيب أو الترهيب (وشفاء لما فى الصدور) من الشكوك التى تعترى المرتابين لوجود ما يستفاد منه فيه من العقائد الحقه، واشتماله على تزييف

١- سورة الجاثية آية ١٨

٢- فتح القدير ح٥ ص٥

٣-سورة يونس آية ٥٧

٤- تفسير النسفى ح٢ص١٦٧

العقائد الباطلة، والهدى (الأرشاد لمن اتبع القرآن وتفكر فيه وتدبر معانيه إلى الطريق الموصلة إلى الجنة، والرحمة، مايوجد فى الكتاب العزيز من الأمور التى يرحم الله بها عباده فالقرآن العظيم مشتمل على هذه الأمور (١) لمن أراد أن يذكر، والدولة الإسلامية لا يؤسس بنيانها إلا على قانون الله، فهو أعلم وأدرى بشئون خلقه وبما يصلحهم فى الحياة فهو سبحانه - ولله المثل الأعلى - كالطبيب المعالج الذى يعلم الأمراض وأدوائها، والعلاج الناجع لمقاومتها، ومادام القانون صادرا من عند الله، فهو لا يحابى طبقة ولا فرد، ولا يسمح باستبداد أو ظلم، قال تعالى: ﴿ وماربك بظلام للعبيد﴾(٢)

وقال سبحانه فى الحديث القدسى: «ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا.. الحديث (٣)

المساواة أحدى مبادىء التشريع الإسلامى:

المساواة بين جميع البشر مبدءا هاما من مبادىء التشريع الإسلامى، والإسلام قد وضع أسسا ودعائم رئيسية من العقيدة والسلوك والمعاملات يجتمع عليها الأمم والشعوب، لاتفاقها مع العقل والمنطق السليم، وهى (العدل والحرية، والحق والسلام، والرحمة والإيثار والإحسان، وأداء الأمانات، والوفاء بالعهود،

١- فتح القدير ح٢ص٤٥٣ ط دار الفكر

٢- فى الآية ٤٦ من سورة فصلت

٣- الأحاديث القدسية ح١ص٢٦٤ ط بيروت نقلا عن صحيح مسلم

والمساواة وتكافؤ الفرص، كما قرر حقوق الإنسان، ودعا إلى حماية المجتمعات من الشرور والآثام وحث على الفضائل) .

ولكونه تشريعا عاما، فإن اختلاف الأجناس والبيئات لا يمنع من توجيه الدعوة إلى الناس جميعا فهم متساوون أمام الله، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالإيمان والتقوى والعمل الصالح، لأنهم جميعا يرجعون إلى أصل واحد، قال تعالى: ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ (١)

قال الشيخ الشوكانى: (والمقصود أنهم متساوون لاتصالهم بنسب واحد وكونه يجمعهم أب واحد وأم واحدة، وأنه لا موضع للتفاخر بينهم بالأنساب، وقيل المعنى: إن كل واحد منكم من أب وأم فالكل سواء (وجعلناكم شعوبا وقبائل) سموا شعبا لتشعبهم واجتماعهم، والجمع الشعوب، وقال مجاهد الشعوب البعيد من النسب (لتعارفوا) أى خلقناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضا، والفائدة فى التعارف هى أن ينتسب كل واحد منهم إلى نسبه ولا يعترى إلى غيره لا للتفاخر بأنسابهم، ودعوى أن هذا الشعب أفضل من هذا الشعب وهذه القبيلة أفضل من هذه القبيلة، فإن ذلك لا يوجب كرما) (٢)

١- الحجرات آية ١٣

٢- فتح القدير ح٥ص٦٧ بتصرف

ومدار الحكمة أن يعرف بعضكم نسب بعض ولا ينسبه إلى غير ابائه، لا أن يتفاخر بالآباء والأجداد (١)، وهناك حكمة أخرى: وهى التعارف العام بين البشر حسب الجنسية والموطن وهذا يظهر فى العلاقات بين الدول سياسيا واقتصاديا وعماليا وثقافيا، تعارفا يهدى الى تعاون وبر وارتباط مصالح بنى البشر، وتحقق الأخوة الإنسانية خاصة وأن الإنسانية قد قاربت بينها وسائل الأتصال الحديثة، وجعلت العالم كله أشبه بدولة كبيرة فالحدث فى دولة تشاهده جميع دول العالم فى نفس اللحظة، والمسلمون لهم من هدى نبيهم ما يجعلهم أصحاب رسالة إلى كل البشر، بل ومطالبون بتقديم الخير والنفع لكل البشر وإقامة القسط والعدل حتى فى مخالفيهم ماداموا لم يعتدوا عليهم(٢) .

وقال الشيخ سليمان الجمل: (أنزل الله هذه الآية زجرا لهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والإذدراء بالفقراء، وأن المدار على التقوى، لأن الجميع من آدم وحواء وإنما الفضل بالتقوى (٣).

ولقد روى الأمام المسلم عن ابى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) (٤)

«ويأيها الناس» خطاب إلى كل البشر، فهو اسم مبهم مفتقر

١- حاشية زادة على البيضاوى ح٣ ص٣٧٥

٢- تفسير سورة الحجرات د/محمد على حجازى ص٢٠٥ ط١٩٩٠م

٣- حاشية الجمل ح٤ص١٨٥ ط عيسى الحلبى

٤- أخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب حديث ٣٤

إلى ما يوضحه وكثر النداء فى القرآن على هذه الطريقة لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة، لأن كل ما نادى الله به عباده أمور عظام، وخطوب جسام ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون، فاقتضى الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ(١) والمعنى: (نحن بقدرتنا خلقناكم من أصل واحد، وأوجدناكم من أب وأم، فلا تفاخر بالآباء والأجداد، ولا اعتداد بالحسب والنسب، كلكم لآدم وآدم من تراب، وجعلناكم شعوبا شتى وقبائل متعددة ليحصل بينكم التعارف والتآلف لا التناحر والتخالف) (٢) ولقد جعل الله الأمة الإسلامية أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس، وليقتدوا بهدى نبيهم فى الدعوة إلى مبادىء الدين التى تحقق المساواة بين البشر، ولقد امتدح الله هذه الأمة بقوله : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ (٣) وهذا وجه خيرتها إذا قاموا على ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر زال عنهم ذلك، وهذا ما تدل عليه الآية من وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

العدل مع المخالفين لنا فى الدين:

ولقد أمر الله بالعدل بين المسلمين وبين مخالفيهم من الذين يلتزمون السلم مع المسلمين، قال تعالى: ﴿ لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن

١- الكشاف ح١ ص٤٤ ط دار المعرفة

٢- مختصر تفسير ابن كثير ح٣ ص٣٦٧

٣- آل عمران آية ١١٠

تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ (١) والمعنى: (لاينهاكم الله عن مبرة هولاء، أى تكرموهم وتحسنوا إليهم قولا وفعلا، وتقضوا إليهم بالقسط ولا تظلموهم، وإذا نهى الإسلام عن الظلم فى حق المشرك فكيف فى حق المسلم(٢) فيكون أولى بتحرى العدل والمساواة بينهم فى كافة أمورهم، والظاهر أن النداءات الإنسانية فى القرآن الكريم والتى وردت بلفظ «يأيها الناس» و «يأيها الإنسان» فى مواطن متعددة لم تكن خاصة، وإنما هى عالمية تتجاوز النداءات والتوجيهات والنظريات الطبيعية التى انبعثت من خلال الإيدلوجيات المختلفة على مر التاريخ، كما أنها فى نفس الوقت تنبثق عن عقيدة الإسلام الأصلية فى الألوهية ذاتها(٣)

فالإنسان فى نظر القرآن لايراد به جنس بعينه أو طائفة تقطن إقليما خاصا، أو فصائل من الناس ذات مواصفات خاصة، ولكنها تعنى الإنسان من حيث كونه كذلك، لتتحقق فيه معنى الإنسانية كاملة، وتحديد العلاقة الإنسانية بين المسلمين وغيرهم ممن دخل الإسلام بلادهم فاتحا، أو حتى أهل البلاد التى لم تخضع لسلطان الإسلام، فدائرة الأخوة الإنسانية اتسعت لتشمل كل شئون الحياة، فى ظل التعامل الإسلامى العادل، الذى يحقق الأمن والاستقرار لدى المسلمين وغيرهم ممن لهم علاقات مع المسلمين، قال تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا

١- الممتحنة آية ٨

٢- تفسير النسفي ح٤ص٢٤٨

٣- دولة الفكر الأستاذ / فتحي سليمان ص١٣

نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ (الآية)(١) حيث أمرهم سبحانه بأن يجتمعوا على التمسك بدين الإسلام أو بالقرآن، ونهاهم عن التفرق الناشىء عن الاختلاف فى الدين، أى ولا تتفرقوا بفعل ما يكون عنه التفريق، أو ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الأختلاف بينكم كما اختلف اليهود والنصارى، ثم أمرهم بأن يذكروا نعمت الله عليهم، وبين لهم من هذه النعمة ما يناسب المقام، وهو أنهم كانوا أعداء مختلفين يقتل بعضهم بعضا وينهب بعضهم بعضا، فأصبحوا بسبب هذه النعمةإخوانا (٢) متحابين يعاون بعضهم بعضا.

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة» (٣) ولقد روى أحمد والحارث وابن أبى حاتم من حديث أبى نضرة، حدثنى من شهد خطبة النبى ﷺ بمنى وهو على بعير يقول: «يأيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل العربى على عجمى ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى خيركم عند الله أتقاكم» (٤)

١- آل عمران آية ١٠٣

٢- فتح القدير ح١ ص١٦٧ ط دار الفكر

٣- فتح البارى ح٥ كتاب المظالم ص١١٦

٤- المرجع السابق ح٦ كتاب المناقب ص٦٠٩

مدى تطبيق المساواة فى ظل التعامل الإسلامى:

وهذا ما قرره الرسول ﷺ فى خطبة الوداع التى جعلها دستورا للمسلمين من بعده لتحقق العدل والمساواة فى كافة المعاملات الإنسانية، وقد جاء الإسلام من البداية مقررا هذا المبدأ فى الفرائض وضمان حد الكفاية للفرد، وتحقيق التوازن بين حرية الفرد فى الربح وحقوق المجتمع، وكذلك مبدأ الملكية الخاصة والعامة، ومبدأ تدخل الدولة فى الاقتصاد ومبدأ مصادرة أموال المستغلين لصالح الفقراء والمظلومين، وفى مجال الحقوق والواجبات قرر الإسلام المساواة بين الناس جميعا لا فرق بين حاكم ومحكوم ولا بين مسلم وذمى، الكل أمام عدالة القرآن وعدالة الإسلام سواء، وهذا المبدأ إتخذه الإسلام دعامة لجميع ما سنه من نظم لعلاقات الأفراد بعضهم مع بعض.

وطبقه فى جميع النواحى التى تقتضى العدالة الاجتماعية، وتقتضى كرامة الإنسان أن يطبقه فى شئونها، فأخذ به فيما يتعلق بتقدير القيمة الإنسانية المشتركة بين أفراد بنى البشر جميعا، وأخذ به فيما يتعلق بالحقوق المدنية وشئون المسئولية والجزاء، والحقوق العامة كحق العمل وحق التعلم والثقافة، وأخذ به فيما يتعلق بشئون الإقتصاد، وأقامه فى كل ناحية من هذه النواحى الثلاث على قواعد واضحة تقتضى حمايته من العبث والإنحراف، كما قرر أن الناس سواسية بحسب خلقهم الأول، وأن ليس ثم تفاضل فى إنسانيتهم، وإنما يجرى التفاضل بينهم على أسس خارجة عن الإنسانية نفسها، على أسس كفاياتهم وأعمالهم وما يقدمه كل

منهم لربه ونفسه ومجتمعه والإنسانية جمعاء(١) وهذا يستدعى أن المحسوبية ممنوعة، وتحقق العدالة مع الأعداء والكافرين، والعدالة فى الإنتقاد والحب والعدالة فى محيط المنزل، وكذلك العدالة الإقتصادية والعدالة فى التوزيع والإستهلاك والتوسط فى الانفاق، وإقامة الحدود على الجميع، وشرع القصاص والدية من أجل ضمان العدالة الإجتماعية.

ولقد جاء فى السنة النبوية وما يؤكد هذا المبدأ كقوله عليه الصلاة والسلام «الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحد على آخر إلا بالتقوى»(٢)

وقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه ابن عمر رضى الله عنهما: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام الأعظم الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهى مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» (٣)

١- محمد رسول الإسلام إصدار المجلس الأعلى للشئون الاسلامية العدد١٨٠ص١٠١-١٠٢

٢- كشف الخفاء للعجلونى وعزاه للديلمى فى سننه ح٢ص٤٣٣

٣- فتح لبارى كتاب الأحكام ح١٣ص١١٩

العدل من أسس تحقق المساواة:

وقد أمر الإسلام بإقامة العدل من أجل تحقق المساواة بين الناس فى الحقوق والأحكام والأعمال، قال تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾ (١) ولفظ الآية يعم القضاء والشهادة، وكل إنسان مأمور بأن يعدل، وفى الآية دعوة إلى حفظ حقوق الخلق، والمعنى: «كونوا قوامين بالعدل عند شهادتكم، والخطاب هنا للمؤمنين جميعا، و«قوامين» صيغة مبالغة، أى ليتكرر منكم القيام بالقسط، وهو العدل فى شهادتكم على أنفسكم وهو الإقرار بما عليكم من الحقوق، وأما الشهادة على الوالدين فبأن يشهد عليهما بحق الغير، وكذلك الشهادة على الأقربين لأنهم مظنة المودة والتعصب، فإذا شهدوا على هؤلاء بما عليهم فالأجنبى من الناس أحرى بأن يشهدوا عليه، وسواء أكان المشهود عليه غنيا فلا تترك الشهادة خشية الضرر منه، أو كان فقيرا فلا تترك الشهادة لأجل فقره رحمة به «فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا» عن الحق أو كراهة أن تعدلوا بين الناس (٢)

وفى الآية وعيد شديد لمن لم يأت بالشهادة على وجهها من أجل ضمان الحقوق وإظهار العدل، والإسلام أمر بالعدل فى

١- سورة النساء آية ١٣٥

٢- فتح القدير ح١ ص٥٢٣٠٥٢٤ بتصرف

القضاء تحقيقا للمساواة، والأصل فى الأقضية قوله تعالى: ﴿وأن أحكم بينهم بما أنزل الله﴾ (١) وقوله تعالى: ﴿ لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ (٢)

وكذلك آية النساء السابقة، وقوله تعالى:﴿ ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ..﴾ (٣) قال القرطبى: (أى ملكناك لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فتخلف من كان قبلك من الأنبياء والأئمة الصالحين، ودل هذا على بيان وجوب الحكم بالحق، وألا يميل إلى أحد الخصمين لقرابة أو رجاء نفع، أو سبب يقتضى الميل من صحبة أو صداقة أو غيرهما، كما أنها تمنع من حكم الحاكم بعلمه (٤) وفيها نهى عن اتباع الهوى فى الحكم حتى لا يضل الإنسان، أو يحيد عن الحق وعن الحكم الذى أمر الله به، وخلق الناس جميعا على هذه السنة الإلهية يخلع عليهم ثوب المساواة الذى يمنع التعاظم والتفاخر، ويقضى على التنابز بالألقاب والسخرية والتجبر والغرور، قال تعالى: ﴿ولاتمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا﴾ (٥) وقال تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساءً من نساء عسى أن يكُن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الأسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ (٦) والخطاب فى الآية عام لجميع البشر.

١- المائدة الآية ٤٩ ٢- النساء الآية ١٠٥

٣- سورة ص آية ٢٦ ٤- تفسير القرطبى ح٦ ص٥٨٣١-٥٨٣٢ ط دار الريان

٥- الإسراء آية ٣٧ ٦- الحجرات آية ١١

قال الطبرى: (والصواب أن يقال إن الله عم بنهيه المؤمنين من أن يسخر بعضهم من بعض) جميع معانى السخرية، فلا يحل لمؤمن أن يسخر من مؤمن لا لفقره ولا لذنب ارتكبه ولا لغير ذلك(١) وقال أبو السعود: (إن مناط الخيرية فى الفريقين ليس ما يظهر للناس من الصور والأشكال، ولا الأوضاع والأطوار التى عليها يدور أمر السخرية، غالبا بل إنما هو الأمور الكامنة فى القلوب، فلا يجترئ أحد على استحقار أحد، فلعله أجمع منه لم نيط به من الخيرية عند الله تعالى، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله والإستهانة بمن عظمة الله (٢) والإسلام قرر تحرير الفرد من أغلال السيطرة والعبودية وتحرير الإنسان من رق العبودية لون من المساواة تحقق كرامته، وتصون إنسانيته، وكذلك رق النساء بمنعهن من التصرف(٣)وجعلهن إماءً، أو التحكم فى منعهن من الحقوق المشروعة لهن، ولذلك جعل الإسلام فك رقاب العبيد وتحريرهم من الأسر والعبودية أحد مصارف الزكاة والصدقات، قال تعالى: ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب﴾ (٤) كما شرع ذلك فى كفارات القتل الخطأ، والظهار، إذا جعل الرجل إمرأته عليه كظهر أمه فى التحريم، وفى كفارة اليمين لمن حلف ولم يبر بيمينه، وكذلك من جامع امرأته فى نهار رمضان.

١- تفسير الطبرى ح٢٦ ص١٣١ ط٢ الحلبى

٢-تفسير أبى السعود ح٥ ص٦١٣ ط دار الفكر

٣- جواهر العرفان ح٨ص٣٣٥ ط أولى

٤- التوبة آية ٦٠

وكل ذلك من أجل تحرير الإنسان من ذل العبودية لغير الله تعالى، فالإنسان الحر لا يملكه غيره فى مجتمعه ولا فى قومه ودولته، لأنه متساو مع الجميع فى إنسانيته، والدولة كيان معنوى يقوم به أفراد من الشعب لخدمه الشعب نفسه، حتى أن الإمام فى نظر الإسلام ليس إلا خادما لمصلحة الشعب، ولذلك قال الشاعر:

الناس للناس من بدو وحاضرة ٠٠ بعض لبعض وأن لم يشعروا خدم(١)

وحكمة الإسلام فى ذلك أن الشعب إذا آنس من حاكمه أنه يعدل بين الناس جميعا، فلا يؤثر غنيا على فقير، ولا صديقا على خصم إطمأنت نفوس الرعية، وأيقن كل فرد أنه لابد من صول حقه إليه مهما كان، قال تعالى: ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا، يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾ (٢)

قال الشيخ الشوكانى: (هذه الآية من أمهات الآيات المشتملة على كثير من أحكام الشرع، لأن الظاهر أن الخطاب

١-من قول أبى العلاء المعرى من شعراء العصر العباسى توفى سنة٤٤٩هـ وأنظر كتاب مفتاح البلاغة ص٢٠ط أميرية الأزهر

٢- النساء الآيتان (٥٨-٥٩)

يشمل جميع الناس فى جميع الأمانات، ويدخل الولاة فى هذا الخطاب دخولا أوليا، وهو قول جمهور المفسرين، ولقد أجمعوا على أن الأمانات مردودة إلى أربابها، فدخل فى هذا الأمر أداء الفرائض التى هى أمانة الله تعالى التى حملها الإنسان، وحفظ الحواس، ثم أمر الله بالحكم بالعدل فقال: ﴿وإذا حكمتم بين الناس...﴾ (الآية) أى «إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالسوية والإنصاف، والعدل هو الفصل فى الحكم على ما فى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم لا الحكم بالرأى المجرد(١) وسبب نزول الآية عن ابن جريج عن مجاهد أنها نزلت فى عثمان بن طلحة حين قبض النبى ﷺ مفتاح الكعبة، فدخل الكعبة يوم الفتح فخرج وهو يتلو هذه الآية، فدعا عثمان فدفع إليه المفتاح (٢) ثم أمر الله بطاعته وطاعة رسوله وأولى الأمر فى غير معصية الله، وطاعة الله فى امتثال أوامره واجتناب نواهيه فى الأحكام وغيرها، وطاعة الرسول ﷺ فيما أمر به ونهى عنه، وطاعة أولياء الأمور من الحكام والسلاطين فى غير معصية الله فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

وقد حث الرسول ﷺ على العدالة فى الحكم والمساواة فيه بقوله: (أشد الناس عذابا يوم القيامة من أشركه الله فى سلطانه فجار فى حكمه) (٣)

١- فتح القدير ح١ ث٤٨٠ -٤٨١ بتصرف

٢- أسباب النزول للواحدى ص٩٠ ط دار الكتب العلمية

٣- كنز العمال سنن الأقوال والأفعال رقم ١٤٦٣٤ والطبرانى فى الصغير ح١ص٢٣٨ والترغيب والترهيب ح٣ ص١٦٧

أمر الإسلام بالمساواة فى تطبيق الأحكام والحدود:

إن الإسلام الزم أولياء الأمور بتطبيق الأحكام دون محاباة لأحد، فإن (كل نفس بما كسبت رهينة) (١) كما ألزمهم باقامة الحدود وتنفيذها من أجل الردع ومقاومة المنكرات فى داخل المجتمع الإنسانى، فشرع حد الاعتداء وأمر أن يكون بالمثل، قال تعالى: ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ (٢) أى فمن اعتدى عليكم فلا تعتدوا إلى ما لا يحل لكم.

ثم حث على العفو والتسامح بقوله تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ (٣) وشرع حد القتل من أجل الحفاظ على النفس البشرية مع مراعاة المثلية، قال تعالى:﴿ يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم، ولكم فى القصاص حياة يأولى الألباب لعلكم تتقون﴾(٤)

روى أنه كان بين حيين من أحياء العرب دماء فى الجاهلية، وكان لأحدهما طول على الأخذ فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد والذكر بالأنثى والإثنين بالواحد، فتحاكما إلى رسول

١- المدثر آية ٣٨

٢- البقرة آية ١٩٤

٣- فى الآية ٤٠ من سورة الشورى

٤- البقرة الآيتان (١٧٨-١٧٩)

الله صلى الله عليه وسلم حين جاء بالإسلام فنزلت الآية والمعنى (فرض عليكم اعتبار المماثلة بين القتلى، ولكم فى هذا الجنس من الحكم الذى هو القصاص من حياة عظيمة، لمنعه عما كانوا عليه من قتل الجماعة بالواحد متى اقتدروا، أو نوع من الحياة بالارتداع عن القتل، لوقوع العلم بالقصاص من القاتل لأنه إذا هم بالقتل فتذكر الاقتصاص ارتدع فسلم صاحبه من القتل وهو من القود(١).

وشرع حد الزنا: من أجل المحافظة على الأعراض والأنساب فقال تعالى:﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ (٢) وهذا فى غير المحصن، أما المحصن فحده الرجم بالحجارة كما ورد فى السنة «البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم» (٣)

وشرع حد السرقة: من أجل المحافظة على الأموال العامة والخاصة وضمان الحقوق لأصحابها، فقال تعالى: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله، والله عزيز حكيم﴾ (٤) والتقدير: والذى سرق والتى سرقت فاقطعوا أيديهما، أى يديهما اليمينان، لأنهما آلة السرقة، والمقطع الرسغ، والمقدار

١- انظر تفسير النسفى ح١ ث٩١-٩٢ بتصرف

٢- النور آية ٢

٣- أخرجه مسلم فى كتاب الحدود باب حد الزنى ح٣ص١٣١٦ ط عيسى الحلبى

٤- المائده آية ٣٨

الذى يجب فيه القطع عند أبى حنيفة عشرة دراهم، وعند الشافعى ومالك ربع دينار، وعند الحسن درهم (١)

وقال تعالى: ﴿ إنما جزاء الذين يُحاربون الله ورسوله ويُسعْون فى الأرض فسادا أن يُقتلوا أو يُصلبوا أو تُقطع أيديهم وأرجلُهم من خلاف أو يُنفَوا من الأرض﴾ (٢)

وهذا حكم كل قاطع طريق مسلما كان أو كافرا، وشرع حد القذف: من أجل الحفاظ على الأنفس من الإتهامات الكاذبة والقول الفاحش، قال تعالى: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادةً أبدا وأولئك هم الفاسقون﴾ (٣)

وشرع حد شرب الخمر: من أجل الحفاظ على العقل الإنسانى الذى كرم الله به الإنسان، لكون الخمر تخامرالعقل فتمنعه من التمييز والتفكير، فهى أم الخبائث، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن عمر: (لعنت الخمر على عشرة أوجه لعنت الخمر بعينها وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحولة إليه وآكل ثمنها) (٤)

ولذلك أمر الله باجتنابها، وجعلها رجسا من عمل

١- تفسير النسفى ح١ ص٢٨٢ تلخيصا

٢- المائدة آية ٣٣

٣- النور آية ٤ ومابعدها

٤-أخرجه أبو داود شفى كتاب الأشربة ح٢ ص٢٩٢ط مصطفى الحلبى ! - المائده آية ٣٨

الشيطان، قال تعالى: ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ (١)

ومشروعية الحدود لم تكن خاصة، وإنما هى عامة من أجل تحقق المساواة كما نهى الإسلام عن سوء الظن بالمؤمنين وعن التحسس والتجسس والإغتياب، قال تعالى: ﴿ يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن أثم ولا تَجسّسوا ولا يغتَب بعضكُم بعضا أيحب أحدكم أن يأكُل لَحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم﴾ (٢)

حيث يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن كثير من الظن وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس فى غير محله «ولاتجسسوا» أى بعضكم على بعض (ولا يغتب بعضكم بعضا) فيه نهى عن الغيبة، وهى ذكرك أخاك بما يكره، وهى محرمة بالإجماع ولا يستثنى منها إلا مارجحت مصلحته (٣)

ثم كان التنفير والتحذير بتصوير الغيبة بمن يحب أكل لحم أخيه ميتا، وهذا تصوير بليغ فى التحذير من الغيبة، كما أمر الإسلام بالتثبت من الخبر حتى لا يتهم البرىء أو يظلم الإنسان، قال تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا

١- المائدة آية ٩٠

٢- الحجرات آية ١٢

٣- تفسير ابن كثير ح٤ص٢١٢

قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾ (١) بل إن الإسلام أمر بالمصالحة بين المتقاتلين وردع الطائفة المعتدية حتى ترجع إلى أمر الله فإن رجعت فأوجب الحكم بينهما بالعدل من أجل تحقق المساواة، قال تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾ (٢) والمعنى: (إذا تقاتل فريقان من المسلمين فعلى المسلمين أن يسعوا بالصلح بينهم ويدعوهم إلى حكم الله، فإن حصل بعد ذلك التعدى من إحدى الطائفتين على الآخرى ولم تقبل الصلح ولم تدخل فيه، كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه، فإن رجعت عن غيها فعلى المسلمين أن يعدلوا بينهما فى الحكم، ثم أمر الله المسلمين أن يعدلوا فى كل أمورهم(٣) والآية نزلت فى قتال حدث بين الأوس والخزرج فى عهده صلى الله عليه وسلم، والصلح يكون بالنصح والدعاء إلى حكم الله، وتقييد الإصلاح بالعدل لأنه مظنة الحيف، و«أقسطوا» أى وأعدلوا فى كل الأمور، وقوله: «إنما المؤمنون أخوة» من حيث أنهم منتسبون إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية(٤) فهم أخوة فى الدين كما أنهم أخوة فى

١- الحجرات آية ٦ ٢- الحجرات الآيتان ٩، ١٠ ٣- فتح القدير ح٥ ص٦٣

٤- تفسير البيضاوى ح٢ ص٤٠٩

النسب بحسب الأصل.

وفى الآية دليل على قتال الفئة الباغية إذا تقرر بغيها على الإمام أو على أحد من المسلمين، والخطاب فى الآية لأولياء الأمور من أجل المحافظة على سلامة المجتمع وضمان الحقوق لأصحابها من أجل تحقق المساواة، فلقد أمرهم الله بالعدل وهو أساس الملك وأصل من أصول الدين الإسلامى لأنه شريعة ودولة، ودين ودنيا، فالعدل واجب على الحكام والولاة حتى تصل الحقوق لأربابها كاملة غير منقوصة (١)

ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾(٢) والغاية منها قيام الناس أنفسهم بالعدل، وحيث أن بناء المجتمع العادل بحاجة إلى القدرتين المادية والمعنوية، جاءت الإشارة لهاتين القدرتين، فقوله (الكتاب والميزان) إشارة للقدرة المعنوية وقوله (وأنزلنا الحديد الخ) إشارة إلى القوة المادية التى تستخدم فى مواجهة الأعداء وقوى التخريب (٣) كما أمر الله بإقامة الميزان من أجل تحقق العدل بين البشر مما يترتب على إقامته تحقق المساواة، قال تعالى: ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط﴾

قال الإمام الشوكانى: أى قَوِّمُوا وزنكم بالعدل، وقيل

١- التفسير الواضح مجلد١ ح٥ص١٣٩

٢- الحديد آية ٢٥

٣- دروس من القرآن لمحمد قرانتى ص١٣٨-١٣٩ بتصرف طالدار الاسلامية بيروت

المعنى: (أقيموا لسان الميزان بالعدل)، وفى قوله: (ووضع الميزان) قال المراد بالميزان العدل، أى وضع فى الأرض العدل الذى أمر به كذا قال مجاهد وقتاده والسدى وغيرهم (١) كما أمر الإسلام بالعدل فى القول دون محاباة لأحد، قال تعالى: ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾(٢) أى إذا قلتم بقول فى خبر أو شهادة أو جرح أو تعديل فاعدلوا فيه، وتحروا الصواب، ولا تتعصبوا فى ذلك لقريب ولا على بعيد بل سووا بين الناس، فإن ذلك من العدل الذى أمر الله به، ومن أجمل وأوفى ما جاء فى العدل وتحقق المساواة قوله تعالى: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾(٣) أى أمر الله بالتسوية فى الحقوق فيما بينكم وترك الظلم، وأيصال كل ذى حق إلى حقه، والآية جامعة لأصول التكليف وعلى رأسها أمر بالعدل، قال ابن مسعود (هذه أجمع آية فى القرآن لخير يمتثل ولشر يجتنب) وقال على بن أبى طالب (العدل الإنصاف والإحسان التفضل) وقال ابن عطية (العدل هو كل مفروض من عقائد وشرائع فى أداء الأمانات وترك الظلم والإنصاف وإعطاء الحق، والإحسان: هو فعل كل مندوب إليه (٤) إلى غير ذلك من أقوال.

١- فتح القدير للشوكانى٤ص١٣٢ والآيتان من سورة الرحمن

٢- فى الآية ١٥٢ من سورة الأنعام

٣- النحل آية ٩٠

٤- تفسير القرطبى ح١ص٣٧٨١-٣٧٨٢ بتصرف

وهذه الآية تدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما أمر الاسلام بالعدل بين الزوجات إذا تزوج الرجل بأكثر من امرأة، من أجل تحقق المساواة بينهن فى كل شىء دون جور على إحداهن، قال تعالى:

﴿فأن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا﴾ (١)

ومما سبق يتبين أن العدل مطلوب فى جميع الأمور من أجل تحقق المساواة كما أمر الإسلام بالتعاون الجاد المثمر بين جميع البشر من أجل تحقيق التكافل وسد حاجة المحتاج، قال تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ (٢)

ولقد جاء عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنصر أخاك ظالما أو مظلوما، فقال رجل يارسول الله أنصره إذا كان مظلوما. أرأيت إن كان ظالما كيف أنصره؟ قال: تحجزه أو تمنعه عن الظلم فإن ذلك نصره(٣)

٢- فى الآية ٣من سورة النساء

٤- فى الآية ٢ من سورة المائدة

٤- رياض الصالحين باب تحريم الظلم ص١١٧ط عبد الرحمن محمد

أمثلة لتحقق المساواة:

ومن اروع الأمثلة فى تحقق المساواة فى الحدود حينما أرسلت قريش أسامة بن زيد ليشفع عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حد المرأة المخزومية التى سرقت فأنكر عليه النبى ذلك، كما جاء فى الحديث المروى عن عائشة رضى الله عنها أن قريشا أهمهم المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يجترىء عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أتشفع فى حد من حدود الله؟ ثم قام فخطب فقال: يأيها الناس إنما ضل من كان قبلكم إنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف منهم أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها(١)

وتكاليف الإسلام عامة وتتناسب مع طاقة وقدرة البشر وتشريعها كذلك لتحقيق المساواة بينهم، فمن مظاهر العبادات فى الإسلام الشعور بالمساواة والحرص على أداء الواجبات، والشعور بالمسئولية والتعود على النظام، وتحقق التكافل الاجتماعى، فلو نظرنا إلى فريضة الصلاة مثلا فسنرى أروع الأمثلة فى تحقق المساواة حيث يقف الغنى بجوار الفقير، والرئيس بجوار المرءوس، والقوى بجوار الضعيف فى صفوف متراصة بين يدى الله للمناجاة دون تفرقة أو تمييز بينهم، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فإذا أطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾ (٢)، وكذلك فريضة الصوم نرى أن الجميع يمتنعون عن الطعام فى وقت واحد من الفجر إلى المغرب من الليل، فى رمضان فيقبلون على الطعام إمتثالا لأمر الله دون تفرقة بين إنسان وآخر، عدا

١- فتح البارى كتاب الحدود باب كراهية الشفاعة فى الحد١٢ ص٨٩

٢- فى الآية ١٠٣ من سورة النساء

أصحاب الأعذار فإن الإسلام يسر عليهم الفطر مع الفدية، وإن كان الصوم خيرا للجميع من أجل تحقق التقوى، قال تعالى: ﴿ يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ (١)، وتأتى فريضة الزكاة لفتح القلوب وتنوير البصائر من أجل تحقق التكافل الإجتماعى والمساواة بين البشر، ونشر الألفة والمحبة بين الناس، وسد حاجة المحتاج حتى لا تسول له نفسه بالسرقة وغيرها، إن لم يجد عين الرحمة فى القلوب، قال تعالى:

﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾(٢)

وحينما أرسل النبى صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: (إنك تأتى قوما من أهل الكتاب فإدعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب(٣)

كما تظهر المساواة فى أعلى مظاهرها فى المؤتمر الإسلامى الكبير الذى يتحقق فى فريضة الحج كل عام، هذا المؤتمر الذى يلتقى فيه أغلب المسلمين على كلمة سواء، لبحث مشاكلهم وأداء مناسك الحج كما قال تعالى:

﴿ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ﴾ (٤)، حيث يتجرد الجميع من ملابسهم ويلبسون ملابس الإحرام الظاهرة البيضاء،

١- البقرة آية١٨٣ ومابعدها

٢- فى الآية ١٠٣ من سورة التوبة

٣-رياض الصالحين باب تحريم الظلم ص١٠٩ ط عبد الرحمن محمد

٤- فى الحج آية ٢٨

دون تفريق بين إنسان وآخر، الكل بمظهر واحد يؤدون مناسك الحج، فلم يعرف الرئيس من المرءوس ولا الخادم من السيد، ولا الغنى من الفقير، الكل يلبى ويناجى ربه بالطواف والسعى، ومن رحمة الله بالبشر أنه فرض الحج على المستطيع وأمر بأدائه، قال تعالى: ﴿ ولله على الناس حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا﴾ (١) وقال تعالى مخاطبا خليل الرحمن ابراهيم عليه السلام: ﴿وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾ (٢)

ولننظر إلى فريضة الجهاد فى نظر الإسلام حينما ينادى منادى الجهاد فيهبوا جميعا للقتال دون تفريق بين فرد وآخر، يقاتلون فى سبيل الله من أجل إعلاء كلمة الله، القائد مع الجندى فى ميدان واحد دون تفرقة، يدافعون عن الحق وينشرون العدل والأمن واثقين بنصر الله لهم،﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ (٣)

والإسلام قد سوى بين الناس جميعا فى الإستفادة من خيرات الأرض دون تفرقة بينهم، فالله سبحانه قد ذللها وهيأها للمعيشة والإستقرار، قال تعالى: ﴿الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم﴾(٤) وقال تعالى: ﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه﴾ (٥)

والخطاب للناس جميعا فى الإستفادة من خيرات الأرض والسماء من

١- آل عمران آية ٩٧

٢- الحج آية ٢٧

٣- فى الآية ٤٠ من سورة الحج

٤- البقرة آية ٢٢

٥- سورة الملك آية ١٥

أجل تحقيق الخلافة على ظهر الأرض، والسعى على ظهرها من أجل المعيشة وتحقق الحضارة الإنسانية وتطورها.

حق العمل فى الإسلام:

ولما كان العمل ضرورى من أجل تحقق الحضارة.

لذلك أمر الإسلام بالعمل وحث عليه وكلف به الجميع، دون تفرقة بين إنسان وآخر، تحققا للمساواة بين الجميع فى إباحة حق العمل، قال تعالى: ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾(١)، وأمر الإسلام بإتقان العمل ووعد عليه أعظم الأجر، قال تعالى: ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا﴾ (٢) وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه) (٣)، وضمن أجر العاملين فقال عليه الصلاة والسلام: (أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه) (٤) من غير تفرقة بين فرد وآخر، أيا كان نوع العمل الذى يعمله تحت راية الإسلام، وضمن الإسلام الحياة الكريمة للعاملين دون تفرقة بين فرد وآخر، أو بين الذكر والأنثى، فأباح الإسلام حق العمل للمرأة عند الحاجة، وفى التخصصات التى تتفق وطبيعة المرأة وكرامتها قال تعالى: ﴿فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عملَ عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾ (٥)، وقال تعالى: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياةً طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ (٦) وفى ذلك حث على العمل من أجل التقدم والبناء، وتحقق المساواة بين الجميع، ومنحهم

١- التوبة آية ١٠٥ ٢- الكهف آية ٣٠

٣- كشف الغطاء للعجلونى ح٢ص٢٨٦ ونسبه للطبرانى

٤- سنن ابن ماجه كتاب الرهون باب أجر الأجير ح٢ص٨١٧

٥- آل عمران آية ١٥٩

٦- النحل آية ٩٧

مبدأ تكافؤ الفرص والمساهمة فى بناء المجتمع الإسلامى، حتى لا يكون التواكل المؤدى إلى التدهور، وانتشار البطالة، وما يترتب عليها من وسائل ضارة كالسرقة والغش والإحتيال والنصب، وأكل أموال الناس بالباطل، والتعامل بالربا والتفرغ للوقوع فى الجرائم والمشاكل،، بالإضافة إلى شرب الخمر وما يشبهه مما يقع فيه بعض الناس المنحرفين، وأمر الإسلام بالمحافظة على حياة الإنسان، وضمن له حق الحياة، ورحم الله من قال مادحا الرسول صلى الله عليه وسلم:

أنقذت أهل الفقر من أهل الغنى .. فالكل فى حق الحياة سواء (١)

الإسلام دين الحرية والكرامة:

كما ضمن الإسلام للإنسان أن يعيش حرا فى مجتمعه، سواء أكانت الحرية دينية تتمثل فى حرية الأديان ليختار الإنسان دينه عن اقتناع كامل، كما حدث مع الصحابة رضوان الله عليهم قال تعالى: ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾ (٣) أو كانت حرية إجتماعية، ليعيش الإنسان فى مجتمعه حرا طليقا دون قيود يعمل من أجل المجتمع ويحقق النفع العام للبشر، كما جاء على لسان بعض زعماء المسلمين الأوفياء كعمر رضى الله عنه: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا) أو كانت الحرية سياسية ليمارس الفرد حقه وإبداء رأيه من أجل المصلحة العامة، دون استبداد برأى فشرع للإنسان أن يمارس حقوقه السياسية فى شئون الدولة دون تفرقة،.

١- أنظر نهج البردة لأمير الشعراء أحمد شوقى

٢- البقرة آية ٢٥٦

٣- النحل آية ١٢٥

ولقد امتدح الله المؤمنين بقوله سبحانه ﴿ وأمرهم شورى بينهم﴾(١) وقال سبحانه وتعالى: مخاطبا معلم البشرية، ليكون قدوة لكل رئيس ومسئول فى إدارته، ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكّل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾(٢) وهى وسائل نجاح كل مدير فى إدارته فإذا تحقق العفو والمغفرة والمشورة فى الأمر والتوكل تحققت الأعمال بنجاح وإتقان مما يحقق التقدم للمجتمع.

حق التعلم فى الإسلام:

كما أباح الإسلام حق التعلم للجميع دون تفرقة بين فرد وآخر، أو بين الذكر والأنثى وكانت أول آيات القرآن نزولا:

﴿ إقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علقٍ، أقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علّم الإنسان مالم يعلم﴾ (٣)

بل إن القرآن أقسم بالقلم وما يسطرون لبيان أهميته فى الكتابه، وتوثيق العلم وتحصيله والتعلم حق مكتسب لمن وفقه الله لتحصيله والتخصص فيه، أيا كان نوعه، دينيا ودنيويا، نافعا للبشرية، والإستفادة منه فى تعمير الكون، واستخدام كل ما سخره الله من أمور كونية للإنسان ليستفيد منها فى البناء والتقدم، وتحقق الحضارة الإنسانية على ظهر الأرض، ولذلك أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم وكل مسلم أن يقول(رب زدنى علما) (٤) وامتن عليه بقوله (وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) (٥) وذلك لأهمية العلم فى الحياة الإنسانية، من لفت نظر الإنسان إلى الكون، وفهم مبادىء الدين وتعاليمه، ومعرفة

١- فى الآية ٣٨ من سورة الشورى ٢- آل عمران آية ١٥٩

٣-سورة العلق الآيات من ١-٥ ٤- سورة طه آية ١١٤

٥- فى الآية ١١٣ من سورة النساء

أصول العبادات والمعاملات.

وفى مجال المعاملات دعا الإسلام إلى التمسك بالأخلاقيات النبيلة من الوفاء بالعهود وأداء الأمانات لأصحابها، وإعطاء الحقوق لمستحقيها، ومنع الأذى عن الآخرين وحث على الصدق فى القول، وإبرام العقود، كما حث على التراحم بين الناس، والبر بهم، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه(١)

ولقد ا متدح رسول الله صلى الله عليه وسلم الأشعريين لتمسكهم بمبدأ المساواة فيما بينهم فقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه (إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد بالسوية فهم منى وأنا منهم) (٢) فما أعظم هذا التعاون.

ومما سبق نرى أن تشريعات الإسلام فى كافة التكاليف وفى الأحكام والحدود كانت عامة لجميع البشر من أجل تحقق المساواة بين الجميع، وأمر الإسلام أولياء الأمور بتطبيق الأحكام التشريعية دون محاباة لأحد، ودون تفريق

١- رياض الصالحين باب قضاء حوائج المسلمين ص١١٩-١٢٠

٢- صحيح البخارى بحاشية السندى ح٢ص٧٤ وانظرص٢٤٠ من رياض الصالحين

بين فرد وآخر، لأن الإسلام دين المساواة والسلام، ودين الأمن والإطمئنان، ودين الإجتماع والاستقرار، ودين الوحدة والترابط، فهو يدعو إلى إقامة حياة حرة كريمة على ظهرالأرض، وينهى عن التجبر والتكبر والغرور، أو احتقار الآخرين ولذلك قال الحكيم:

لاتحقرن صغيرة .. إن الجبال من الحصى (١)

والإسلام ذم التقليد الأعمى، ودعا إلى حرية الفكر والنظر والتعلم، كما حرر الإنسان من القيود التى تخذله وتذله، كما جعله سيدا فى الأرض ليكون خليفة للخالق، ليعمر الكون بالطاعة والعبادة على هدى من مبادىء دينه، وصدق الله حيث يقول:﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ﴾ (٢).

مدى تطبيق المساواة فى الماضى:

لقد كان السلف الصالح مُثُلاً عليا فى تطبيق المساواة فى كافة شئونهم، ولقد طبق رسولنا الكريم صلى الله عليه ولم هذا المبدأ فى أروع صورة مبتدئاً بنفسه أولا باعتباره القدوة المثلى، فهو خير من يعدل بين المسلمين وغيرهم، فحيما حدثت مشكلة وضع الحجرالأسود حين تجديد الكعبة وبنائها، واختلفت القبائل من يحوز بشرف رفع هذا الحجر، حتى كادت تقوم الحرب بين القبائل، ثم قالوا نحتكم الأمر إلى أول من يدخل من باب بنى شيبة، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من دخل منه فقالوا: هذا الأمين رضيناه حكما بيننا، ثم خلع رداءه الشريف وأمر كل شيخ قبيلة بأن يرفع من طرف بعد وضع الحجر

١- قالها ابن المعتز، وانظر تفسير ابن كثير ح١ ص٤٠ ط عيسى الحلبى

٢- سورة الفتح آية٢٨

فى وسط الرداء ثم رفعوه إلى مكانه فأخذه بيده الشريفة ووضعه (١) وبذلك سوى بين الجميع وحسم الخلاف، وحينما جاءه الأعرابى من بنى تميم وهو يوزع القسم، وقال له أعدل هذه قسمه ما أريد بها وجه الله، وأراد الصحابة الكرام معاقبته فنهاهم، ثم قال له «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ (٢)

وفى قصة الشاة التى كان يعدها للطعام مع صحابته، فقال أحدهم علىّ ذبحها، وقال الآخر وعلىّ طبخها، فما كان من النبى صلى الله عليه وسلم إلا المشاركة معهم دون تمييز، فقال لهم وعلىّ جمع الحطب، وشاركهم فى إعداد الطعام، وفى غزوة الخندق ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم مثلا طيبا فى المساواة، عندما اتفق المسلمون على حفر الخندق حول المدينة فكان عليه الصلاة والسلام ينقل التراب معهم وقد أمسك بالفأس ليعاون المسلمين فى حفر الخندق(٣) دون تمييز عليهم، بل كان صلى الله عليه وسلم يعدل بين نسائه فى الطعام والمبيت ويشاركهن فى أداء العمل في البيت، ويقول: (اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما لا أملك، لأنه صلى الله عليه وسلم كان أكثر حبا لعائشة رضى الله عنها، كما كان يعدل بينهن حين السفر فيقرع بينهن، فمن خرجت قرعتها سافرت معه.

حث الإسلام على الإيثار والتعاون بين المسلمين:

ولقد حث صلى الله عليه وسلم على الإيثار والمساوة بين المسلمين، فقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو سعيد الحدرى رضى الله عنه قال: (بينما

١- انظر فتح البارى كتاب المناقب باب بنيان الكعبة ح٧ص١٨٠

٢- انظر صحيح البخارى فى ذلك باب ما جاء فى قول الرجل ويلك مجلد ح٤ص٧٥ط عيسى الحلبى

٣- أنظر صحيح البخارى فى باب غزوة الخندق ح٣ص٣١-٣٢ بحاشية السندى

نحن فى سفر مع النبى صلى الله عليه وسلم إذا جاء رجل على راحلة فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له، فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لاحق لأحد منا فى فضل) (١)

كما آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة، فكان المهاجرى يقتسم مع أخيه الأنصارى ماله بالسوية، حتى من كان عنده أكثر من أمرأة يقول لأخيه المهاجرى لى امرأتان فأنظر أعجبهما إليك فسمها لى كى أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوج بها فما أروع هذا الوفاء والإيثار فى تحقق المساواة، ولقد امتدح الله الأنصار على هذه الأخوة القائمة على التسامح والوفاء، وحسن الخلق والإيثار بقوله سبحانه ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولايجدون فى صدورهم حاجةً مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾(٢) وقد نهج الخلفاء الراشدون نهج الرسول صلى الله عليه وسلم فى المساواة وضربوا أروع الأمثلة فى رعاية العدالة، وهذه المساواة فى المعاملة والعدالة فى الإحكام هى الديمقراطية الإسلامية، التى جعلت الشعب يحاسب الخلفاء والحكام، ومكنت القضاة أن يسووا بين الخلفاء والرعايا (٣)

١- رياض الصالحين باب الإيثار والمواساة ص٢٣٩ ط عبد الرحمن محمد

٢- سورة الحشر آية ٩

٣- مجتمع إسلامى ص١٣٨ ط ١٩٦٧ أميرية الأزهر.

تطبيق الخلفاء مبدأ المساواة فى الحكم وفى جميع أمور الحياة:

لقد كان من المبادىء السامية التى أعلنها الصديق رضى الله عنه، فى أول خطبة يخطبها بعد توليه الخلافة، فقد حمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله، ثم قال: أما بعد (أيها الناس فإنى قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقوّمونى الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم الضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع أحد منكم الجهاد فى سبيل الله، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم (١) ويقول فى كلمة أخرى: (إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فتابعونى وإن زغت فقومونى)

ويقول عمر بن الخطاب رضى الله بعد توليه الحكم (إنه لم يبلغ حق ذى حق أن يطاع فى معصية الله، إننى أعقل الحق من نفسى، وأتقدم وأبين لكم أمرى، وأنما أنا رجل منكم، وأنا مسئول عن أمانتى وما أنا فيه... ثم قال فى كلمة أخرى (أيها الناس من رأى فىّ إعوجاجا فليقومه؟ تقدم إليه رجل وقال: لو رأينا فيك إعوجاجا لقومناه بسيوفنا؟ فرد عمر قائلا: (الحمد لله أن كان فى أمة عمر من يقوم إعوجاج عمر بالسيف) (٢)

وقوله فى دستوره الذى وضعه لمعاملة العمال (إجعلوا الناس عندكم

١- سيرة ابن هشام ج٤ ص٦٦١

٢- محمد رسول الإسلام والسلام العدد ١٨٠ ص١١٤ إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

سواء قريبهم كبعيدهم، وبعيدهم كقريبهم، إياكم والرشا والحكم بالهوى، وأن تأخذوا الناس عند الغضب(١) فكان رضى الله عنه نموذجا للحاكم الصالح الذى يرى نفسه مسئولا أمام الله عن كل ظلم يمس الرعية، وهو بهذا المنهج الإسلامى فى الحكم استطاع أن يحقق العدالة التى عاشت الرعية فى ظلها آمنة والدولة قوية (٢)

إن عدالة عمر تمثل روح الإسلام الذى لا يفرق بين شخص وآخر، فالناس جميعا متساوون فى كل شيئ وأمام القضاء، ولذلك حينما أراد القاضى أن يكرمه بالتحية والمنع من اليمين، حينما تخاصم معه رجل من الرعية لم يرض بذلك، وغضب لهذه التفرقة من أجل تحقق العدل فى القضاء، ولقد كتب رسالة إلى أبى موسى الأشعرى يأمره بأن يجلس أمام الأعرابى الذى جلده وقص شعره ليقتص منه بمثل هذا الفعل، وجلس أبو موسى أمام الإعرابى فتأثر بذلك وعفا عنه وقال: (لن يظلم أحدو عمر أمير المؤمنين) وكذلك فعل مع عبد الله بن عمرو بن العاص حينما اشتكاه رجل من مصر بأنه ضربه بالسوط، فأمر المصرى بأن يقتص ممن ضربه، ثم قال عمر لعمرو (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا) (٣)

وفى رسالة عمر إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء (آس بين الناس فى مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا يخاف ضعيف من جورك، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا حرم حلالا أو أحل حراما، ولا يمنعنك قضاء قضيته بالأمس فراجعت

١-كنز العمال سنن الأقوال والأفعال ح٥ص٨٠٧-٨٠٨

٢- الخلفاء الراشدون د/كمال أبو زيد شلال وغيره ص٨٦ ط أولى

٣- عمر بن الخطاب د/محمد عطية الإبراشى ص٤٦بتصرف ط١٩٨٦ أميرية

فيه نفسك، وهديت فيه إلى رشدك أن ترجع عنه إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل (١) لخير دليل على تطبيق العدل والمساواة فى كافة القضايا والحقوق المتعلقة بالبشرية جمعاء، إن العالم لم ينجب من أمثال سيدنا عمر إلا أفراد يعدون على الأصابع، فإن عمر من أعظم الفاتحين المصلحين الذين عرفهم التاريخ، وأن عدالته الرحيمة الصارمة، وسياسته الحكيمة النافذة، وإدارته الدقيقة الساهرة كل ذلك يجعله من هؤلاء الذين لا يظفر التاريخ بأمثالهم (٢) وحينما أخذت طائفة من المسلمين على عثمان رضى الله عنه بعد توليه الحكم خلفا لعمر بعض أخطاء فى تصريفه لشئون الحكم، من وجهة نظرهم أذعن لهم وقال: (إنى أتوب وأنزع ولا أعود لشىء مما عابه علىَّ المسلمون، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من ذل فليتب ومن أخطأ فليتب، ولا يتمادى فى الهلكة، فإن من تمادى فى الجور كان أبعد من الطريق، فأنا أول من اتعظ، استغفر الله مما فعلت وأتوب إليه، فإذا نزلت من منبرى فليأتنى أشرافكم فليرونى رأيهم، فوالله لئن ردنى الحق عبد لأذلن له ذل العبيد) وقد سمع الرسول صلى الله عليه وسلم أباذر الغفارى يحتد على بلال الحبشى وهو يحاوره ويقول له: (يابن السوداء، فغضب عليه الصلاة والسلام غضبا شديدا وانتهر أباذر وقال له: إنك امرؤ فيك جاهلية؟ ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو عمل صالح، فوضع أبو ذر خده على الأرض وأقسم على بلال أن يطأه حتى يغفر الله له ذلته هذه ويكفر عنه ما بدر منه من خلق الجاهلية الأولى(٣)

١- كنز العمال سنن الأقوال والأفعال ج٦ص٨٠٦ ط مؤسسة الرسالة

٢- جواهر العرفان د/رءوف شلبى ج٨ص٢٧٧ ط أولى

٣-محمد رسول الإسلام والسلام العدد١٨٠ص١١٥ إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

وذات مرة اختصم المأمون وهو خليفة مع رجل من العامة إلى قاضى بغداد يحيي ابن أكثم، فدخل المأمون إلى مجلس يحيي وخلفه خادم يحمل سجادة ليجلس عليها المأمون،، فلم يرض القاضى أن يخص الخليفة بجلسة لايجلس مثلها خصمه، وقال ياأمير المؤمنين (لا تأخذ على صاحبك شرف المجلس دونه، فدعا المأمون للرجل بطنفسة أخرى، وهكذا أطاع المأمون القاضى، وقبل أن يسوى بينه وبين خصمه أمام القاضى، وقد أنصف المأمون نفسه امرأة من الشعب على إبنه وذلك أن امرأة شكت إليه ابنه العباس، فأمره أن يجلس معها مجلس الخصوم، فجعلت تتكلم بصوت يعلو صوت العباس، فقال لها أحمد بن خالد: يا أمة الله إنك بين يدى أمير المؤمنين، وأنك تكلمين الأمير إخفضى صوتك؟ فقال المأمون: (دعها يا أحمد فإن الحق أنطقها وأخرسه، ثم قضى لها برد ضيعتها، وعاقب العباس على ظلمه لها وأمر لها بنفقة وكتب إلى عامله ببلدها أن يعفى ضيعتها من الخراج ويحسن معاملتها(١) ولو نظرنا إلى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز وموقفه من الرعايا، لعرفنا مدى تطبيقه لمبدأ المساواة فى شئون دولته، وفى إدارته، وفى معاملته للأفراد جميعا فى العمل، وفى حق التملك وصيانة الأموال والحقوق، مما يوضح حسن سياسته فى قيادته للأمة والسهر على قضاء متطلباتها مما يعد بحق أنه من أعدل قواد المسلمين المصلحين، ولذلك أطلق عليه خامس الخلفاء الراشدين هذا قليل من كثير عن نشأة السلف الصالح فى تطبيق العدل والمساواة، وعلى رأسهم الفاروق عمر بن الخطاب الذى كان يتحسس أحوال الرعية ليلا، وهو القائل: (لو عثرت بغلة ببلاد العراق لخشيت أن يسأل عنها عمر أمام الله لِمَ لَمْ يسوى لها الطريق) وحينما أراد أن يضع حدا للتغالى فى المهور، فقالت له امرأة كيف ذلك؟ وقد قال الله تعالى:

١- مجتمع إسلامى ص١٣٩ ط١٩٦٧ الأميرية الأزهرية.

﴿وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا﴾(١) فقال أصابت امرأة وأخطأ عمر(٢) .

إقتداء الصحابة الكرام بالرسول صلى الله عليه وسلم فى تحقق المساواة:

ولقد سار الصحابة رضوان الله عليهم والتابعون من بعدهم على تطبيق هذا المبدأ فى كل معاملاتهم، دون تفريق بين فرد وآخر، إقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، لقوله تعالى: ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ (٣) وهكذا كان الرعيل الأول الذى تربى فى ظل تعاليم الإسلام المستمدة من كتاب الله، فنال كل إنسان حقه وحريته، ودانت لهم البلاد وحققوا انتصارات باهرة، ففتحوا البلدان ونشروا الإسلام، وحقق الله على أيديهم الرخاء، وأبادوا دولتى الفرس والروم، ومكن الله لهم فى الأرض مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ﴾(٤)

فمن هذا المنطلق يتبين يسر الإسلام، ووضوح تعاليمه، ومدى حرية الفكر فيه وكذلك تواضع الأمراء المسلمين، فالخليفة أو الحاكم وأمير الجند وأى

١- النساء آية ٢٠

٢- عمر بن الخطاب د/محمد عطية الإبراشى ص٤٩ ط١٩٨٦ أميرية

٣-الأحزاب آية٢١

٤-النور الآيتان ٥٥، ٦

فرد من الرعية سواء فى الحقوق والواجبات، وكل هذا وذاك دفع الشعوب للإستجابة إلى الإسلام بسهولة عن رضا وفهم، ولقد سار قواد المسلمين على هذا النهج القويم ينهلون مبادئهم وقوانينهم وتشريعاتهم من القرآن والسنة، إقتداء بالرسول الكريم والسلف الصالح من الصحابة الذين امتدحهم الله بقوله سبحانه وتعالى: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركّعاً سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجرا عظيما» (١) فما أعظم الثناء عليهم بكونهم متراحمين فيما بينهم، أشداء فى الحق، يطلبون فضل الله ورضوانه، ولقد ضرب النبى صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة لتحقق المساواة فى جميع تصرفاته فى أمور الدولة، ليقتدى بذلك حكام المسلمين فى حكمهم وإدارتهم، دون استبداد برأى أو تجاوز حد أر اعتداء على حق، فإذا ما أخذ برأى الجماعة، توصل إلى الرأى الفيصل، ووضع دعائم الديمقراطية السليمة فى المجتمع الإسلامى، ليقوم المجتمع على هذا المبدأ الإنسانى فى تحقق العدل والمساواة بين البشر فى جميع الحقوق والواجبات لمنع التمييز والإستئثار، وكذلك مبدأ تكافؤ الفرص فى الأعمال مما يترتب على ذلك السعادة والشعوربالأمن فى ظل الإسلام محققين العزة والكرامة.

المساواة فى العصر الحاضر ومدى تطبيقها:

ظل المسلمون محافظين على تحقق العدل والمساواة فى كافة الحقوق والواجبات، وفى المعاملات الإنسانية والقضائية، بلا تفرقة بين إنسان وآخر،

١- الفتح الآية الآخيرة، وهى توضح صفاتهم العظيمة فى التوراة والإنجيل والقرآن.

وكذلك كان شأن الخلفاء والولاة مع الرعايا من أجل تحقيق التكافل بين أفراد المجتمع المسلم، وساد التعامل بين دولة الإسلام وغيرها على هذا المنوال من أجل تحقق الإستقرار والأمان بين الأفراد والجماعات، وبين المجتمع المسلم وغيره، وكان المسلمون بعد انطلاقهم من جزيرة العرب إلى أملاك الفرس والروم للفتوحات ونشر الإسلام، يختلطون كل عام بعنصر جديد، وكان قد غمرهم الثراء حتى أمعنوا فى الترف والنعيم، ودخلوا إلى بهجة الدنيا من أوسع أبوابها، وساروا إلى حد بعيد فى تقليد أهل البلاد المفتوحة، وأسلموا ذمامهم للتطور، فدخل عليهم ما دخل فى دينهم ودنياهم، وتقاليدهم وأخلاقهم وأصابهم الكثير من اختلاط المدنيات والثقافات والقوميات التى غلبوها وامتزجوا بينها، وتغيرت أحوال وأوضاع وجدت أمور لم تكن من قبل، وظهر ذلك كله فى النفوس والخلق والتمسك بالدين والإنغماس فى النعيم وتحكيم حاجات الدنيا(١) وبعد أن جنح الفكر المادى بكل تصوراته عن هذا الطريق الصحيح الذى قال الله فى شأنه ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ (٢) مما نتج عنه الشقاء، وتأخر المسلمون بتركهم أصول دينهم وأسس حضارتهم العلمية، بالرغم من أن علوم الطب والفلسفة والإجتماع والتاريخ وغيرها قام بها علماء مسلمون أولا، ثم أخذها غير المسلمين وطبقوها فتقدموا، وجعلوا من أنفسهم سادة ينظرون إلى دول الإسلام وشعوبه على أنها دويلات ضعيفة قليلة، وخاصة بعد تدهورالخلافة، وانقسام دولة الإسلام إلى عدة ولايات أو دول إسلامية ولذلك تزعم العالم فى العصر الحاضر كتلتان كبيرتان، كتلة شرقية كانت تتزعمها روسيا، وكتلة غربية تتزعمها الولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا، وتسابقت الكتلتان على القوة والسيطرة على الوطن العربى، بحكم موقعه

١- تاريخ الأمة العربية د/عبد الفتاح شحاته ح٢ص١١٤ ط١٩٧٢م

٢- سورة الأنعام آية ١٥٣

الجغرافى بين الشرق والغرب، ومن الغريب أن تعترف دول الغرب بحق الشعوب فى تقرير مصيرها، وتنادى بالديمقراطية التى تقدر قيمة كل فرد وتجعل لرأية وزنا، ثم تنكر على بعض الشعوب العربية حقها فى تقرير مصير نفسها، وحق أفرادها فى الحرية والتقدير والكفاية، ونظرا لخبرة العرب التاريخية مع دول الإستعمار الغربية، نجدهم قليلى الثقة بالغرب ورعايته فى المساواة والحرية والسلام، بل إن العرب ليلمسوا بأعينهم الآن ما تنزله بعض هذه الدول بالعرب فى الجنوب والخليج العربى(١)

مقياس تقدم الأمم:

وليس تقدم الأمم أو تأخرها بالنظر إلى التقدم العلمى المادى، وإنما يكون بحسب المقياس الإسلامى الذي دعا إلى الترابط والتآخى، وتحقق المساواة بين الناس جميعا فى شتى مجالات الحياة، فى النواحى الإقتصادية والمادية والثقافية والعلمية أو العمل والأمن والاستقرار وهذا ما يعبر عنه بالمثل العليا التى أتى بها الإسلام، فهو قد شرع المساواة فى كافة الحقوق والتكاليف، وأصبح الناس سواءً لايميز أحدهم عن الآخر جنس أو حسب أو غنى، وحتى الأقليات الدينية ضمن لها الإسلام المساواة، خلافا لما تسير عليه بعض الدول المعاصرة التى تتشدق بالديمقراطية التى أساسها المساواة، فتميز بين شعوبها وشعوب مستعمراتها، بل هى تميز بين الملونين من رعاياها وبين البيض، وتسيئ معاملة سكان البلاد الأصليين كما يحدث مع الزنوج والهنود الحمر فى أمريكا والموارى فى استراليا والملونين والزنوج فى جنوب إفريقيا(١) إن عقده الإستعلاء على أساس من المولد أو اللون أو الجنس التى ما تزال قوة مغالبة فى أجزاء من أفريقيا

١- تاريخ العرب الحديث ص٣٥٤ط١٩٧٠م

٢- مجتمع إسلامى ص١٤٠ ط١٩٦٧ الأزهر

وأمريكا وأوربا، هى فى نظرى من اثار الأجيال الوثنية وغير المتدينة أكثر من كونها نتيجة لتعاليم الأديان التى يعتنقها الناس هناك، وكان من حسن الحظ أن الإسلام تبرأ من أول يوم من حواجز الجنس واللون والأرض واللسان، واستهدف قيام الأخوة العالمية(١)

يقول د/ محمد دراز (لقد بين الله أن أصل التكوين الإنسانى واحد، وأن الطبيعة الإنسانية واحدة، فيجب أن تكون المعاملة الإنسانية واحدة، وإلا كانت تفرقة من غير مسوغ، فالإسلام جعل التفاوت بين الناس بالفضيلة والعمل الصالح (لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى) (٢) وبينما نجد شريعة الإسلام تحقق الوحدة، وتدعو إلى التعارف والتآلف والعدل، نرى القوانين الوضعية تفرض على الناس صورا تتنافى مع الفطرة والكرامة الإنسانية، ولذلك كان النداء الربانى إلى كل البشر لبيان مقياس التفاضل فى نظر الإسلام ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (٣) فهى تتسق مع منهج الإسلام فى نظرته إلى الناس، وأنه لا تفاضل بينهم إلا بمدى صلة العبد بربه،، وإقباله على الإلتزام بشرعه، فالآية تقرر مبدأ الأخوة الإنسانية العامة، وتدعو إلى إقامة علاقات بين الشعوب والقبائل على أساس من الأخوة التى لا تعترف بفوارق بين البشر.

مظاهر التعارف بين البشر:

وهذا التعارف له ظواهر متعددة أولها: اللقاء على مودة وتراحم فى أمن وسلام لا فى حرب وخصام، وثانيها: التعاون على أن ينتفع الإنسان بكل خيرات

١- دولة الإسلام والعالم /سلسلة الثقافة الإسلامية العدد٣٨ص٦٦-٦٧ط١٩٦٢م

٢- مبادىء علم الأخلاق د/محمد عبد الله درازص٤

٣- الحجرات آية١٣

الأرض بحيث ينتفع كل إقليم بما هو فى الإقليم الآخر مما يفيض عن حاجته، ويأخذ ما يحتاج إليه، فالإنتاج للإنسانية كلها، وثالثها: إحترام كل إقليم للإقليم الآخر، فلا احتقار ولا أرهاق ولا استعباد ولا سيطرة واغتصاب كما يقع من بعض الشعوب فى العصر الحاضر.

وليس بخفى ما يدور فى لبنان وفلسطين والصومال والبوسنة والهرسك، وكذلك ما كان فى أفغانستان من قبل مما أضاع الحقوق وأدى إلى التفرقة العنصرية بين الشعوب.

أعداء الإسلام يتربصون به وبالمسلمين بوسائل متعددة:

إن أعداء الإسلام لمسوا ما للدين من أثر عميق فى حياة الإنسانية من حيث أنه المنبع والأساس لكل حضارة وقى، وهو من أخطر العوامل التى عن طريقها يهدم كل أساس يقيمه الإستعمار، ومن هنا ركز أعداء الإسلام خططهم للنيل من الإسلام، والقضاء على مبادئه وتعاليمه، ولقد هيئوا المجال لدعوة الإستشراق والتبشيرعلى أيدى العديد من المفكرين الغربيين لتحقيق أغراضهم بوسائل كثيرة، منها تشوية الإسلام والثقافة الإسلامية والتشكيك فى الدين الإسلامى، ومنها العمل على إيجاد تخاذل روحى وشعور بالنقص فى المحيط الإسلامى مما يدفع إلى الجنوح للمدنية الغربية، ومنها إثارة الجدل بغية توسيع شقة الخلاف بين المذاهب والأديان والطوائف، والعمل على إثارة النزاع كلما هدأ حتى يظل المسلمون فى ضعف وتفرقة مما يمكن عدوهم من النيل منهم وهم فى غفلة عن ذلك، ومنها العمل الدءوب على جعل العالم الإسلامى على خضوع دائم للأستعمار بكافة أشكاله، حتى لا يمكن للمسلمين أن يتصدروا البشرية مرة أخرى(١)

١- مجلة كلية أصول الدين العدد الثانى ص١٥٢ ط١٩٨٤م

واجب العلماء نحو الدين:

وواجب العلماء والباحثين فى رحاب الإسلام أن يقاوموا تلك المحاولات الهدامة التى تحاول القضاء على تعاليم الإسلام، ومنها المساواة بين البشر والشعوب فى كافة الحقوق المشروعة، لتظل التفرقة العنصرية قائمة فى المجتمعات والأمانة العلمية والدينية تحتم على جميع العلماء أن يعملوا وباستمرار لتحرير الفكر الإسلامى إقتداء بمن سبق من الأوفياء، حتى لاتضيع الحقوق وتنتفى المساواة ويظهر التحكم وانتشار ظاهرة الرق، بعد أن قضى الإسلام على هذه الظاهرة نهائيا، فالأمة الحرة لا تستعبد لأخرى ولو كانت أقوى منها.

اقتصاد الأوربيين قائم على الإسترقاق:

ولقد توسع الرومانيون واليونانيون والفرس فى الإسترقاق إلى حد بعيد، وكذلك ارتبط اقتصاد العالم الأوربى والحياة الاجتماعية كلها بنظام الرق فهم العاملون فى المزارع والبيوت والمرافق العامة وانتظمت الحياة على هذا المنوال كأنه أمر طبيعى(١)

وإذا تأملنا مدلول كلمة المساواة فى مفهوم الثورة الفرنسية نجد أنها تعنى المساواة فى الحقوق السياسية والقانونية التى تعطى الأفراد حقوقا متساوية، فى الانتخابات وأمام القانون عند التقاضى.

ولقد لعب هذا المفهوم فى وقته دورا خطيرا فى خدمة الأفراد فى الحياة الأوربية، لأنه يلزم طبقة الأشراف ورجال الكنيسة بأنه يتساوى بهم غيرهم من بقية الشعب، أمام التقاضى وفى الضرائب وغير ذلك، مما كان لهؤلاء من امتيازات فى ظل الطبقية التى تهدم كرامة الإنسان، كما هو مشاهد فى كثير من المجتمعات الآن.

١- جواهر العرفان ح٨ص٣٣٥ ط أولى المحمدية

وأيضا اختل مفهوم المساواة فى العالم المادى باختلال الموازين الإقتصادية التى جعلت الملاك والرأسماليين فى جانب والعمال المغلوبين على أمرهم فى جانب آخر، مما نتج عنه أن سقطت الحقوق فى المساواة(١)

الكفالة فى العمالة نوع من الإسترقاق:

بل أن بعض الدول المسلمة تقرر فى مبدأ العمالة الكفالة، وهى وسيلة للتحكم فى النفس وتقييد حرية الإنسان فهناك بعض الدول تستأثر بالمادة وقوة الإقتصاد ولم تنظر بعين الرحمة لشقيقاتها من الدول الفقيرة، مع أن الله يقول: ﴿كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ (٢) وإذا هاجر المسلم إليها من أجل العمل والسعى على المعاش كما أمر الإسلام﴿ ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة﴾ (٣) فإنهم يكفلونه تحكما فى حريته وذلته ويفرقون بينه وبين أبنائهم فى المعاملة ويضعون قيودا وشروطا.

مع أن الله تعالى يقول: ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ (٤) ومع أن وثيقة الإعلان العالمى لحقوق الإنسان تقول فى المادة الأولى: (يولد الناس أحرارا متساوين فى الكرامة والحقوق وكلهم قد وهب له الرشد والضمير، وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضا بروح الإخاء، وتقول المادة الثانية: (لكل فرد أن يستمتع بجميع الحقوق والحريات المنصوص عليها فى هذا الإعلان دون تفرقة أو تمييز أى نوع كالتمييز بسبب السلالة أو اللون أو اللغة) (٥)

١- مجلة كلية أصول الدين العدد الثانى ص١٣٨ط ١٩٨٤م

٢- فى الآية ٧ من سورة الحشر

٣- سورة النساء آية ١٠٠

٤- المنافقون آية ٨

٥- مجتمع إسلامى ص١٤١ أميرية الأزهر عام ١٩٦٧م

والإسلام بما فيه من نظم وثقافة ومبادىء تتناول شئون الحياة، أوجب أن تقوم العلاقات على أساس من التآخى والحب، ومنح تكافؤ الفرص بين الشعوب، وإبراز مفاهيم التضامن الدولى فى كافة النواحى الاقتصادية والعلمية والدينية والفكرية.

صلة الإسلام بالديانات الأخرى:

وأساس صلة الإسلام بالديانات الأخرى رعاية الحق والعدل وهذا معنى المساواة، فالإسلام يقوم على التسامح واحترام الحريات، والمساواة بين الرعايا، لا فرق بين مسلم وغيره، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (من ظلم معاهدا أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أوأخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة) (١)

ومنهج الحكم الإسلامى القائم على العدل لا يتغير فى جميع المعاملات الإنسانية على ظهر الأرض، فلقد أمر الإسلام بالتعاون والوفاء بالعهود وأداء الأمانات، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومنح حقوق التملك والعمل والتعلم، والهجرة والكرامة والحياة والتمتع بالفراغ، والتأمين من العجز.

والشعب أى شعب كان فى هذا العصر الذى تقدمت فيه العلوم وازدهرت الصناعات وتعددت ألوان الرفاهية، أصبح أعمق شعورا وأشد تطلعا إلى المساواة منه فى أى وقت مضى.

متى تتحقق الحضارة الإنسانية:

فالحضارة اليوم تبنيها الصناعات بفضل العامل لخير المجموع، وكل حضارة تستأثر بها اليوم طبقة دون طبقة، فإنقاذ الحضارة منوط بتعميمها، وإنقاذ

١- الترغيب والترهيب للمنذرى ج٤ص١١ وكشف الخفاء ج٣ص٣٦٠.

الأمة منوط بنشر المساواة، ومحو الفوارق الطبقية الشاسعة بين أفرادها، بحيث تتألف منها وحدة إقتصادية أساسها المساواة، حتى تكمل الوحدة السياسية التى أساسها الإستقلال والحرية، فالأمة المتحضرة هى التى تنوط بالإستقلال والعدل الإجتماعى والإقتصادى الشامل(١)

ومع أن الحضارات القديمة كانت حضارات مجيدة، وأنها أخرجت عظماء فى العلم والأدب والفن لا يقلون عن عظماء العلم الحديث، ومع ذلك فقد انتهت تلك الحضارات لأنها تركزت فى طبقة معينة، فغاية الحضارة أن يتساوى الجميع فى النواحى الثقافية والعلمية والمادية.

والنتيجة التى أريد أن أصل إليها إنما هى العودة إلى الإسلام ملاحظة وتجربة ومنهجا وقوة مادية، واستخدام ما سخره الله للإنسان من آيات كونيه، ومنافع مادية لصالح البشرية، والإعتزاز بالإسلام والعودة إليه فى الجانب الثقافى من حضارته العلمية، سواء تعلق ذلك بالعقيدة أو الشريعة أو الأخلاق من أجل استعادة كرامة الإنسان.

وإذا كان الإسلام قد أمر بالمساواة بين جميع البشر، فإنه لا يسوى بين المؤمن والكافر فى المنزلة قال تعالى: ﴿ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون﴾ (٢)

وكذلك لا يسوى بين العالم والجاهل قال تعالى: ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ (٣)

١- مجتمع إسلامى ص١٤٠ط ١٩٦٧ أميرية الأزهر.

٢-السجدة آية١٨

٣- الزمر فى الآية ٩

ولا يسوى بين العامل والخامل قال تعالى:﴿ قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور﴾ ثم قال تعالى بعد ذلك ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾ (١)

ما نأمل توقعه من قادة المسلمين:

والأمل معقود على أن يطبق المسئولون هذا المبدأ الإسلامى فى جميع المعاملات بين جميع الأفراد والجماعات، وكذلك فى العلاقات الدولية حتى لا تضيع الحقوق أو تنتهى فرص العمل، فيكون التواكل والبطالة، وما يترتب عليهما من سلوكيات شاذة بل أن الإسلام منح أن يعمل الفرد فى غير وطنه، من أجل التعاون العمالى بين الجميع وليس ذلك خاصا فى دول الإسلام، وإنما يعم كل الإنسانية، وتوجد الآن بعض منظمات دولية تقوم بتطبيق القوانين الدولية، وإلزام الشعوب بها كمنظمة اليونسكو فى التعليم، ومنظمة الأغذية والزراعة فى الإقتصاد، ومنظمة العمل الدولية فى العمل، وهيئة الأمم المتحدة فى بحث المشاكل والقضايا الدولية وحلها سلميا، كما أمر الإسلام من أجل تحقق المساواة بين جميع الشعوب، والأمل معقود فى أن تحقق تلك المنظمات الدولية هذا المبدأ بالفعل ليعود للإنسان حريته وكرامته، وتعود للإنسانية مكانتها فى الحياة، والآن تظهر صحوة إسلامية فى بعض الدول المسلمة تحت قيادة قادتها الإسلاميين لتحقيق المساواة بين الأفراد وبين كل دولة مسلمة أخرى، وكذلك بين دول الإسلام وغيرها من أجل تحقق رفاهية الشعوب واستقرارها، ويظهر هذا فى العلاقات الدولية وقد أخذت جمهورية مصر العربية بمبادىء الإسلام السامية وعملت على نشر المساواة وأتاحت الفرص المتكافئة لجميع أبناء الشعب فى شتى

١- سورة الرعد الآيتان ١٦ ، ١٧

الميادين، وتسعى الآن جاهدة فى إتاحة فرص العمل وخلق مجالات جديدة لمن لا يعمل حتى تعم المساواة كافة أبناء الشعب فى جميع المجالات، كما تسعى الدولة جاهدة فى تطبيق هذا المبدأ الإسلامى فى علاقاتها الدولية من أجل حرية واستقرار الشعوب، ونشر الألفة والمحبة بين الجميع، والقضاء على البطالة ووسائل التدمير الهدامة، وظاهرة الأرهاب التى تتنافى وتعاليم الإسلام، كما تقوم الدولة بجهد كبير تجاه الأزمة الفلسطينية وفى الصومال والبوسنة والهرسك وغيرهم من أجل استعادة حقوقهم، وتحقق المساواة بين الناس والحرية لأبناء تلك الشعوب، إنطلاقا من مبادىء الرسلام، ولن يعود للمسلمين عزهم ومجدهم وكرامتهم إلا بالرجوع إلى الإسلام من أجل تحقق الإستقرار قال تعالى: ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ (١) وقال تعالى:

﴿ يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ (٢) ولذلك تعقد المؤتمرات لمناقشة قضايا المسلمين.

أثر المساواة فى الفرد والمجتمع:

للمساواة آثار عظيمة فى حياة الفرد وفى المجتمع سواء أكان على مستوى الدولة أو الشعوب إسلامية كانت أو غيرها، أما أثرها على الفرد فيظهر فى الأمورالتالية:-

١- شعور الفرد بكرامته وإنسانيته وعزته فى وطنه، كعضو عامل فى بناء الحضارة.

٢- ضمان حق الفرد المسلم وغيره، دون ظلم أو ضياع لحقوقه بجعله ينطلق للعمل وسد حاجته فى أسرته على أساس من الكفاءة، والتربية الصحيحة.

٣- المساواة تحقق حرية الفرد بأنواعها المختلفة دون قيود، أو إضرار فيسعى جاهدا

١- سورة الأنعام آية ٨٢ ٢- سورة البقرة آية ١٦٨

فى الخير، ويعاون الآخرين تعاونا مثمرا بناءا.

٤- تحقق تكافؤ الفرص، ووضع الرجل المناسب فى المكان المناسب فيضمن سلامته ومكانته فى المجتمع الذى يعيش فيه، ويكافؤ على عمله الجاد المثمر.

٥- إن مقياس التفاضل بين الفرد وغيره، إنما هو بالتقوى والعمل الصالح وليس بالحسب والنسب أو اللون أو الجنس أو غير ذلك كما يظن أعداء الإسلام.

٦- شعور الفرد بالأخوة الإنسانية تجعله مطمئنا سعيدا فى الحياة مادام هناك تراحم وتواد بين المسلمين، أو بين الفرد وجيرانه وآله وذويه.

٧- تحقق المساواة فى التكاليف، وفى الحقوق، وفى الحدود، تجعل الإنسان مطمئنا على نفسه واله وماله وعرضه، فيرى السعادة والأمن والاستقرار فى الحياة.

٨- العفو والتسامح والصفح والصلح منهاج المسلم فى حياته مع إخوانه ومع الآخرين.

٩- بتحقق المساواة بين كل فرد يسود العدل بين الأفراد وتكون الألفة والمحبة والترابط... إلى غير ذلك من اثار كترابط الفرد مع غيره وتعاونه معه ومواساته إياه، وأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

أما أثر المساواة فى المجتمع فيظهر فيما يلى :-

١- العفو والتسامح بين أفراد المجتمع الإسلامى وبينهم وبين غيرهم من المجتمعات الأخرى.

٢- تحقق الإكتفاء الذاتى، والإعتماد على النفس فى العمل والإنتاج علامة المجتمع الإسلامى.

٣- حل المشكلات القائمة على أساس من المشورة وانتخاب الأفضل للإدارة ممن يكون أحق بها وأهلها.

٤- عدم خضوم المجتمع لوطأة الظلم، أو ضياع حقوقه، أو ذلة أبنائه، بل عليه أن يتحرك على أساس من العدالة الاجتماعية.

٥- إقامة التوزيع الإقتصادى على أساس منظم حتى لا تتكسد الثروة بيد الأغنياء أو جماعة معينة على حساب الجماعات الأخرى.

٦- إقامة مجتمع فاضل تمضى حياة جماهيره على هدى العدل فى سائر الروابط العائلية والإجتماعية والسياسية والإقتصادية.

٧- تساوى جميع الأفراد فى التكاليف والقوانين وأخضاعهم للرقابة الإلهية تجعلهم يعملون جاهدين من أجل إرضاء خالقهم فى حياتهم.

٨- بناء الإخلاق الإنسانية الفاضلة فى المجتمعات البشرية التى يترتب عليها قيمة الإنسان على ظهر الأرض.

٩- بث روح الثقة بين المسلمين ومديد العون للشعوب الفقيرة من المسلمين.

١٠- إعادة طبيعة البشر إلى فطرتهم الإنسانية وتصحيح أخطائهم وتراجعهم عن الاستئثار بالمادة إلى المشاعر الإنسانية النبيلة.

١١- تحقق المساواة بين المجتمعات يقلل أسباب العداء بينهم فينصرف الأفراد للعمل الجاد المثمر متعاونين متراحمين متحابين مترابطين.

١٢- إقامة حياة إجتماعية سليمة قوامها العدل وأساسها الحرية والشعور بالأمن والآمان إلى غير ذلك من آثار ، والشعوب بحاجة ماسة إلى تحقق المساواة العامة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د/ محمد شبل عطية

فى١٧ من رمضان سنه١٤١٣هـ

١٠ من مارس سنه ١٩٩٣م